

شيخ في مرقص !

للأستاذ علي الطنطاوي

— ❦ —

— ١ —

كنت أصلي أمس في مسجد المباس ، فلما قضيت الصلاة وتلفت للسلام لمحت (فلانا) فكذبت بصرى وعدت إليه أنثبته فإذا هو ببلحه ودمه ، وإذا هو يصلي صلاة خاشع لله منتبئ أواب ، وكان آخر عهدى به أنه ركب في طريق النواية رأسه ، وأقدم لإقدام الفرس الشَّموس ، نخب في الضلال ووضع ، وأغار وأنجد ، ثم انتهى به الخبط إلى الهاوية ، فوقع (على أم رأسه) في اشتهاه راقصة مشهورة ، وحسب هذا الاشتهاه حياً كالذي قرأ وصفه في الروايات فصنع مثلما يصنع المحبّون : نسي عقله ودينه ، ووجد بقلبه وماله ، وعرفت منه الفاجرة هذه الخافقة ، فاستنزفت دم (جيبه) وماء قلبه ، ثم لم توصله إلى إرابه ولم تمتشه بجيبه ... وكان له ضمير يناديه فأعرض عن نداء ضميره ، وكان له إخوان ينصحونه فسدّ أذنيه عن نصيح إخوانه ، فلما يئسوا منه ومن صلاحه انصرفوا عنه وتركوه لنفسه والراقصة ولإبليس ، ثم للمرض والفقر وجههم !

... فلما رأيت في المسجد عجبت وانتظرت حتى فرغ ، فأقبلت فسلمت عليه وتساءلته ، فقال : إن حديثي عجيب ، وإني لا أحب أن أحدث به في بيت الله فتعال معي إلى بيتي تسمع حديثي ...

وحدثني فقال :

إن الفضل عليّ فيما رأيت من توبتي لله ثم للشيخ صلاح الدين أحسن الله إليه ، فلقد هداني الله به وهدى أقواماً بعد إذ كانوا ضالّين . ولقد عرفت رجالاً شجعاناً أولى عزم وإقدام ، وسمعت أخبار العلماء الذين واجهوا الملوكة بما يكرهون ، وأحاديث أهل الجراءة والصدع بالحق ؛ ولا والله ما سمعت ولا عرفت بأجراً من هذا الشيخ ، ولا أثبت منه جناناً ...

قلت : إذ صنع ماذا؟

قال : إذ وعظ في المرقص ! أما سمعت الحكاية ؟ لقد استفاض خبرها وتناقضت الصحف ، وكان حديث السّوامر أياماً طويلاً ... وذلك أنه نظر فرأى طلاب العلم لا يزالون ينقصون ، ورأى الناس ينصرفون عن المساجد فلا يحضرها إلا الكهول والمجترّ ، وما يحتاج هؤلاء الوعظ إنما يحتاجه الشباب . وسأل ابن الشباب ؟ فأجأوه عن أن يخبروه ، ثم قالوا : إن الشباب في السيئات والمراقص ونوادى القهار ... قال : وما السيئات والمراقص ؟ لم يكن الشيخ يدرى ماهي ، ولم يكن يعرف من الدنيا إلا مسجده وداره ، ولا يسمع إلا حديث العلم ، وقال المصنف ، وذكر الشارح وعقب عليه المحتشئ ...

قالوا : إن المراقص أهباء واسعة تمتلئ بالناس وفي صدرهم منصات عالية لها سُتُرتُرتفع وتندل ، يقوم عليها نسوة عاريات إلا من رخرق لا تكاد تستر من أجسادهن شيئاً ، يقفزن ويلعبن ويحركن أيديهن وأرجلهن ...

قال : حسبكم ، حسبكم ! إنا لله وإنا إليه راجعون ! نساء يلعبن أمام أعين الرجال الأجانب ؟! ما ظنفت أن مثل هذا يكون في دار الإسلام ، قوموا بنا إلى المرقص !

قالوا : إلى المرقص يا مولانا ؟!

قال : نعم . تنق مثل لعنة داود وعيسى بن مريم ، ونفّير هذا المنكر بالسنتنا إذ قد قدمت بالحكام رقّة دينهم عن أن يفتيروه بأيديهم .

قالوا : يا مولانا ، إنهم يسخرون منا ويؤذوننا ، ولا يصغفون لقائلنا . قال : ما نحن بأفضل من الأنبياء ، وما نفوسنا بأكرم علينا من نفوسهم . ولقد سُخر منهم وأوذوا في سبيل الله فما ضعفوا ولا استكانوا ، وإنما علينا البلاغ والهدى هدى الله .

قالوا : إن المدارس قد ابتدعوا فيها هذه الأيام بدعة جديدة من أخزي البدع وأرذالها لإبليس ، وهي أن تبرز البنات مسافرات حاسرات فيلبعن أمام الرجال ، فلنبدأ بالمدارس قبل المراقص فانهم سيقتلون فيها الأخلاق ، باسم الرياضة والصحة والفن !

قال الشيخ : بل نبدأ بالمراقص إن شاء الله .

فلما رأوا منه الجد والاصرار ، قالوا : أمهلنا يا مولانا حتى نعدّ لك مكاناً فيه تمظ منه الناس .

فارتفع الستار ونظروا ...

نظروا فإذا هم يرون مكان ذلك الجسم الحبيب المشتكى ،
وذلك العُرى النُرى الفتان ، شيخاً جالساً بامتة ولحيته وجبته ،
شيخاً حقيقياً لا تمثالاً مكسواً ثياب الشيخ ، ولا شيخاً مزوراً
من شيوخ (التمثيل) ١

وبدا الشيخ درسه بحمد الله والصلاة على رسول الله ؛
وربطت الدهشة السنة الحاضرين لحظة ، فكانت سكتة شاملة ،
ثم صحو فجأة ، فكان الانفجار ...

إن كل محاولة لوصف هذا الانفجار إنما هي إفساد وتشويه
لمصورته في نفس السامع ، وإنك تعرف هؤلاء الناس وإن فهم
كل ماجن خبيث ، وجبار فاجر ، وفيهم السكران وفيهم الحشاش ،
وقد جاءهم هذا الشيخ في الساعة التي اكتملت فيها نشوتهم ،
وطمئت (براح الراقصة) سكرتهم ، ليتلو عليهم حديث التقى
والصلاح من فوق منصة المرقص ، وليقول لهم دعوا هذه المرأة
فإنها رجس ، وعضوا عنها أبصاركم فإنها عورة ، وانصرفوا عن
هذه البقعة فإنها دار دنس وإثم ، وقد طلع عليهم وهم يرتقبون
طلعة النادة العارية السُنَّاج ... فتصور ما ذا يكون منهم !

لقد صُفِّروا له وسُخِّروا ، ورموه بكل قبيح في القول ،
وسألوه أن يتجرد فيرقص لهم ويربهم غنجه ، وعرضوا عليه
كؤوش الخمر مترعة ، وهو ماضٍ في كلامه كأنما هؤلاء ذباب
يحموم حوله من بعيد ، بل إن الرجل ليحفظ بالثياب وهو لم يحفظهم
ولم يبال بهم . وتمب الشاغبون ومل الساخرون ، وكان في
القوم من يرف الشيخ ، فصاحوا بهم أن اسكتوا ويلكم نسمع
ما يقول ، وكانت سكتة أخرى ، وهي كل ما كان يثنى الشيخ
فتمكن فيها من آذانهم ونفذ إلى قلوبهم ، فأصغوا ثم اطمانوا ،
ثم خشموا ، ثم اتقادوا إليه وتملقوا به ، وحل من قلوبهم محل
(تلك) ، ولكن حبهم إياها كان حباً سفلياً ، وهذا حب
طاهر مقدس ... فلما انتهى كلامه ، وقام ليخرج ، قاموا معه
وخرجوا وراه ، وتركوا المرقص لصاحبه وللشيطان ... ولازمته
أنا من ذلك اليوم كما لازمه كثير ممن كان هناك ...

قلت : ألم تحفظ شيئاً من كلامه ؟

وذهبوا إلى (مرقص أبي نواس) فسألوا صاحبه أن يؤجرهم
المسرح ربيع ساعة ما بين الفصيلين ، ليحكي الشيخ فيمظ فيه
الناس . فنظر الرجل فيهم لعله يبصر تحت معاطفهم السروقة
ثياب المستثنى التي فرّوا بها من (القصير^(١)) وابتعد عنهم
خشية أن تعاود أحدهم جنته فينب على عنقه فيخنقه أو يشج
رأسه بمحديدة يخفيها في كفه ، ودعا أعواناً له لينقذوه من هؤلاء
المجانين الذين يريدون أن يبحثوا بشيخهم ليمظ الناس على مسرح
التيارو ... ولكن القوم قطعوا عليه ما هو فيه وجرّوه من
رستنه^(٢) فانقاد ذليلاً طيماً ، حتى عرضوا عليه في هذا
ال (الربع من الساعة) نصف ما يكسبه في الليلة كلها ، وقبل
منهم وشيئهم إلى الباب ، ولكنه لم يسأل لأن يقبض المبلغ منهم
قبل أن ينفقه دونهم .

وفرح الرجل بهذا الإعلان الجديد عن مرقصه ، وأمل أن
ينقلب به (مرقص مطيع بن أباس) الذي يقوم إلى جنبه زواجه
ويقاسمه قصّاده ، وانتظر أن (يمثل) الشيخ (مهزلة) تكون
(رواية الموسم) ، وذهب فطبع (إعلانات) ضخمة عن (المفاجأة
الدهشة) التي ستروع الناس ، وجاء الناس يرون هذه المفاجأة
وما يقع في وهم أهدم خيالاً ، إلا إنها راقصة جديدة ، أو إنها
رقصة مبتكرة ، وماذا يكون في المرقص إلا الرقص ؟!

وكنت تلك الليلة هناك ، ورقصت (فلانة) رقصة عبقرية
مُبدعة عرضت فيها من فنونها وقتونها عجيباً ما رأى الراؤون
مثله ، وجنّنت الحاضرين حتى ملابدبون من الفتنة ما يصمتون ،
وحتى دميت الأُكف من التصفيح والتصفيق ، ويحّت الحناجر
من الهتاف والصراخ ، وأرخى الستار على الراقصة وهي أحب
إلى كل واحد منهم من زوجه وولده ، وما واحد منهم إلا وينذل
في ساعة منها ماله وشرفه ودينه ، وجملوا يتنادون باسمها ، يريدون
أن يمتوا أبصارهم برؤيتها كرة أخرى ، فلما تمدى غيابها أقبلوا
يرددون اسمها في إلحاح واتصال ، ويقرعون الأرض بأقدامهم
فعل الصبيان ، ورواد الملاهي . لهم عقول كعقول الصبيان ،

(١) القصير ظاهر بيده دوماً على يد ١٤٥ كيلو من دمن
وليه مستشفى الأمراض العقلية .

(٢) الرستن : الزمام من عام العام الصحيح .